الإهــداء

بقلم : سي. إم. دوني «الفجر في بريطانيا»

إحياءً لذكرى « عبد العزيز بن سعود» أعظم ملوك الصحراء العربية

نقول :

أواه... ها هو قد قضى نحبه، وأصاب الوجل كافة القلوب

التي شهدت جثمان ذلك الملك وهو يواري الثرى

ستظل أمجاده من هذه اللحظة وصاعداً راسخة في ذكرى بني البشر

obeikandl.com

صفحة بيضاء

obeikandl.com

كلمة من الناشر

تعيش المملكة العربية السعودية هذا العام (١٤١٩هـ) ذكرى وطنية عزيزة على قلوب كل المحبين لهذا الوطن المعطاء هي ذكرى مرور مائة عام على استرداد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، طيب الله ثراه، الرياض، ومن ثم الانطلاق في رحلة التأسيس والتوحيد للمملكة العربية السعودية.

وإسهاماً من مكتبة العبيكان للطباعة والنشر في هذه المناسبة التاريخية المهمة يصدر هذا الكتاب الذي يحكي شيئاً من تاريخ الدولة السعودية عبر أطوارها الثلاثة.

والكتاب الذي بين يديك أخي القارئ الكريم هو واحد من عدة إصدارات تاريخية تصدرها المكتبة بهذه المناسبة الوطنية.

والكتاب من تأليف الرحالة والمؤرخ الدبلوماسي سانت جون فيلبي (H.ST. JONH PHILBY) وهو في أصله صادر باللغة الإنجليزية بعنوان (SAUDI ARABIA) وقام بترجمته بتكليف من المكتبة الدكتور عاطف فالح يوسف عضو هيئة التدريس في كلية اللغات والترجمة في جامعة الملك سعود.

وقد حرصت المكتبة على أن يخرج الكتاب من النص الإنجليزي مع السماح بالتصرف اليسير الذي لا يخل بمضمون الكتاب ولا بالأفكار الواردة فيه.

ولن نستبق الأحداث في الحديث عن الكتاب وأهميته العلمية حيث إن ذلك متروك للمختصين من المؤرخين ويمثلهم في هذا الكتاب الدكتور عمر ابن صالح بن سليمان العمري أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المشارك في قسم التاريخ والحضارة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الذي استجاب لدعوة المكتبة مشكوراً وقام بمراجعة الكتاب بعد الترجمة مراجعة علمية تاريخية وعلق على ما يحتاج منه إلى تعليق في ثنايا الكتاب وكتب مقدمة؛ هي دراسة تاريخية علمية تحدث فيها عن المؤلف وحياته وكتاباته المختلفة بوجه عام، وعن الكتاب وأهميته العلمية بوجه خاص.

وما يهمنا هنا هو أن نؤكد، فقط، على قضية مهمة، وإن كانت بالتأكيد لا تخفى على الجميع، هذه القضية هي أن قيامنا على ترجمة الكتاب وتكليف الدكتور عمر العمري بمراجعته ومن ثم نشر الكتاب لا تعني الضرورة أن المكتبة على قناعة أو إيمان بما يرد في هذا الكتاب من آراء وأفكار وحقائق أو وجهات نظر، وإنما هي تمثل وجهات نظر أصحابها كل في بابه.

واسمح لنا عند هذا الحدث أخي القارئ العزيز أن نتركك مع الكتاب راجين لك وقتاً ممتعاً مع محتوياته، آملين أن نكون بنشر الكتاب وغيره من الإصدارات قد قمنا ولو بشيء يسير من الواجب الملقى علينا في هذه المناسبة الوطنية المهمة وهي مناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية.

مقدمة المترجم

ينظر مؤلف هذا الكتاب السيد «جون فيلبي» إلى «ابن سعود» على أنه آخر - وربما أعظم - زعيم بين الزعماء العرب الذين ارتكرت سمعتهم على المنجرات الشخصية التي حققوها في بيئة صحراوية رومانسية متقشفة.

ولقد كتبت هذه الرواية التاريخية بمعرفة وثيقة وحميمة لا يمكن إلا القليل من الناس أن يجاورها، لأن المؤلف كان صديقاً شخصياً للملك على مدى سنوات عديدة. يبدأ سرد أحداث هذه الرواية من أوائل أيام عائلة «ابن سعود» مرورا بالأيام العظام التي عاشها «عبد العزيز» ووصولاً لسنوات ما بعد الحرب، حيث تدفقت الخيرات من النفط.

أما بخصوص الترجمة فقد توخيتُ وبكل الحرص أن أنقل فكر ومعاني الكتاب الأصلي مع تصرف يسير في بعض الأفكار الاستطرادية الواردة. كما حرصت أن تكون الترجمة بأسلوب يُرضي ذوق القارئ دون الخروج عن المعنى الوارد في أسلوب المؤلف «جون فيلبي». وهذا يعني أن كافة ما ورد في هذه الترجمة من أفكار وآراء وأحداث ووقائع وحقائق هي بالدرجة الأولى من نسج فكر المؤلف «جون فيلبي» وليست من بنات فكر المترجم.

أرجو من الله التوفيق، وأرجو أن يحقق هذا الكتاب الفائدة التي يرجوها القارئ، كما أتوجه بالشكر لطابعه ومنقحه.

والله ولي التوفيق ، ، ،

دراسة تاريخية عن المؤلف وعن الكتاب

بقلم الدكتور عمر بن صالح بن سليمان العمري

أستاذ التاريخ الحديث المشارك

قسم التاريخ والحضارة

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد

فيسرني من خلال هذه الصفحات أن أقدم لك أخي القارئ الكريم دراسة علمية تاريخية عن الكتاب الذي بين يديك وهو كتاب: العربية السعودية SAUDI ARABIA من تأليف الرحالة والمؤرخ والسياسي المعروف سانت جون فيلبي H. ST. JOHN PHILBY وهذا الكتاب واحد من عدد من الإصدارات التاريخية التي تصدرها مكتبة العبيكان للطباعة والنشر بالرياض في هذا العام المميز في التاريخ السعودي الحديث، وهو عام (١٤١٩هـ)، وذلك مشاركة من المكتبة في الأنشطة الثقافية والعلمية التي تجري في المناسبة التاريخية الوطنية التي تحتفل بها المملكة العربية السعودية، وهي مناسبة ذكرى مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية.

وكانت الفكرة ومن ثم الخطوات العملية بهذه الإصدارات قد بدأت، حسب علمي، منذ وقت مبكر من العام قبل الماضي، أي منذ أن انطلقت الأجهزة العلمية المختلفة في المملكة العربية السعودية في سباق وتنافس شريف للمساهمة في هذه المناسبة الوطنية المهمة.

وكانت صلتي العلمية بهذا المشروع من الإصدارات التاريخية قد بدأت في مرحلة متقدمة من مراحل الخطوات العملية التي قامت بها دار النشر؛ العبيكان.

فقد كان لي شرف المشاركة المبكرة في جوانب مختلفة من الاستشارات والخطوات العلمية التي قامت بها الدار لاختيار وانتقاء بعض المؤلفات التاريخية الأمثل والتي تخدم أهداف هذه المناسبة التاريخية وذلك من بين عدد كبير من المؤلفات والإصدارات التاريخية النادرة التي تم استعراضها آنذاك.

واستمراراً للتعاون العلمي بيني وبين الدار في هذا المجال فقد قمت، بعد أن تمت ترجمة الكتاب من قبل الدكتور عاطف فالح يوسف، بمراجعة الكتاب المترجم مراجعة علمية تاريخية مع التعليق على بعض النقاط التي رأيت أنها تحتاج إلى تعليق، وقبل ذلك وبعده إعداد هذه الورقة أو الدراسة التاريخية عن الكتاب وعن مؤلفه المؤرخ الرحالة والدبلوماسي المعروف سانت جون فيلبي.

وبهذه المناسبة يسرني أن أقدم عبر هذه الورقة خالص التقدير للإخوة في مكتبة العبيكان لجهودهم التي بذلوها وإصرارهم على المضي في خطواتهم الطموحة لإصدار هذه المؤلفات القيمة، كما أشكرهم على الثقة التي شرفوني بها، آملاً أن أكون عند حسن ظنهم بي.

وبهذه المناسبة أشكر للدكتور عاطف قيامه بترجمة الكتاب، رغم علمي

بالصعوبات التي يلاقيها أمثاله، خاصة في التعامل مع الأسماء التي ربما بدت بعيدة المنال عليه إما لغرابتها في الأصل أو لعدم كتابتها باللغة الإنجليزية كما يفترض أن تكتب. وظهر لي أثر تلك الصعوبة التي واجهها المترجم في نصوص الترجمة التي قمت بمراجعتها والتي اضطرتني في الحقيقة في بعض الأحيان إلى الابتعاد عن نصوص الترجمة وجعل النص الأصلي هو الأساس الذي اعتمد عليه في مثل هذه المواقف بعد الاستعانة بالطبع ببعض المصادر التاريخية التي تقربني من الحقيقة المفقودة.

كما وفي الوقت نفسه أحب أن أشير بقدرة الدكتور عاطف على التصرف في الترجمة ببعض الأحيان وعدم تقيده الحرفي بالنص الانجليزي وهذا فن من فنون الترجمة العلمية الراقية رغم أني قد لاحظت عند المراجعة أنالتصرف الذي تم في الترجمة كان يسيراً وقاصراً في معظمه على بعض الموضوعات التي استطرد فيها المؤلف.

وختاماً آمل أن أكون قد قدمت من خلال هذا الكتاب وهذه الدراسة خدمة علمية للقراء عامة وللباحثين والمؤرخين على وجه الخصوص، والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

عمر بن صالح العمري

الرياض ربيع الآخر ١٤١٩هـ

مؤلف الكتاب :

مؤلف الكتاب هو المؤرخ الرحالة والدبلوماسي البريطاني المشهور سانت جون فيلبي .

وتجدر الإشارة إلى أن حياة فيلبي ربما تكون صورة نموذجية مصغرة لحياة بعض رجال الإدارة ورجال السياسة البريطانيين في مرحلة التوهج البريطاني، أي في الوقت الذي كانت فيه (بريطانيا العظمى) هي الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس كما يقال .

فالمولد للبعض من أولئك الرجال لم يكن في بلدهم بريطانيا بلدهم الأم والعيش والعمل والنشاط السياسي كذلك لم يكن في بلادهم بريطانيا، علاوة على ذلك فقد شارك فيلبي بعض أولئك الرجال في مكان الوفاة حيث توفي، مثله مثل غيره من رجالات بريطانيا الذين كانوا يلفظون أنفاسهم الأخيرة في الحياة الدنيا خارج بريطانيا .

وإن كان فيلبي قد شارك أولئك الرجال بتلك السمات في نموذج مسار الحياة، فقد توج فيلبي، على ما يبدو، هذا النموذج بميزة تميزه عن غالبية أولئك الرجال؛ وهي مسألة اعتناقه الإسلام .

نعم إن حياة فيلبي حقا صورة مصغرة من صور حياة بعض رجال التاج البريطاني الذين استطاعوا بتفانيهم وتضحياتهم أن يديروا الشؤون البريطانية بكل حماسة وبكل دقة وأن يحافظوا على الصالح العليا لبريطانيا من مواقعهم المختلفة .

ينتمي فيلبي إلى أسرة إنجليزية أرثوذكسية من إقليم ايسكس ESSEX [١] في شرقي لندن وفي الجنوب الشرقي من بريطانيا تقريبا[٢].

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر، ومن أجل التجارة، حيث اشتهرت الأسرة، قام والده هاري مونتي Harry Montagu بالترحال إلى الشرق وبالذات إلى سيلان حيث تجارة القهوة، مثله في ذلك غيره من كثير من التجار البريطانيين في ذلك الوقت الذي كانوا يهيمنون فيه على تجارة المستعمرات البريطانية ومقدراتها كجزء من هيمنتهم وسيطرتهم الكلية على تلك البلدان وإدارتها وفق المصالح البريطانية.

وفي سيلان وفي كولمبو بالذات وخلال إحدى الحفلات التقى هاري بفتاة نالت إعجابه تدعى كويني Gueenie . ويبدو أن تلك الفتاة لم تكن غريبة عن هاري حيث كانت البنت الكبرى لقائد الحامية البريطانية في كولمبو العقيد جون دنكن John Duncan ولذلك لم يجد الطرفان صعوبة في الاتفان ومن ثم عقد القران بينهما في شهر مايو من عام ١٨٨٣م[٣].

وفي عام ١٨٨٥م، وفي مصحة سانت القريبة من مسكن والديه في كولمبو كان مولد فيلبي. وكان هو الثاني من بين إخوته الثلاثة الذين ولدوا جميعا في سيلان خلال ست سنوات هي الفترة ما بين ١٨٨٤ - ١٨٨٩[٤].

---

(١) لعله من باب الصدف التي لا تنسى، أن تكون ايسكس هي إحدى المقاطعات التي عشت بها قرابة خمس سنوات حيث كانت ايسكس هي الجامعة التي حصلت منها على درجة الدكتوراه في بريطانيا.

(2) ELIZABETH MONROE, PHILBY OF ARABIA, FIRST PUBLISHED BY FABER AND FABER, LONDON, 1973, PP 11, 12.

(3) ELIZABETH MONROE, OP. CIT, P 12.

(4) IBIED, P 14.

ويبدو، كما يرى الدكتور عبد الله العثيمين، فإن فيلبي قد أضاف إلى اسمه ذلك اللقب الشرفي سانت جون ST. JOHN من اسم تلك المصحة التي ولد بها [١].

وكانت معاناة أسرته قد بدأت في سيلان في التسعينيات من القرن التاسع عشر على إثر قانون الزراعة في المستعمرات البريطانية الذي أجبر بعض المزارعين البريطانيين في سيلان على تحويل نوعية مزروعاتهم من القهوة إلى الشاي، وكان والد فيلبي من بين ضحايا التغير، وزادت مأساة الأسرة حين انحرف هاري في مسار حياته وانغمس في الملذات والشهوات التي بدأت تأخذه كثيراً عن بيته وتجارته، فكانت الضحية بالطبع ماله وأولاده وزوجته.

وفي عام ١٨٩١م، وحينما ازداد بعد هاري عن بيته ونفد صبرها من محاولات العلاج فقد اضطرت والدة فيلبي إلى الانتقال بأولادها من سيلان والتوجه بهم إلى البلد الأم بريطانيا حيث عاشت معهم في لندن [٢].

وفي لندن عاشت الأم مع أولادها في السنتين الأوليين حياة يغلب عليها الشقاء والبؤس، ولم يخفف تلك المعاناة إلا تدخل والد الأم جون دنكن الذي ساعد ابنته على نفقات التعليم لأولادها، حيث التحق فيلبي في البداية في مدرسة داخلية. كان تفوق فيلبي ونبوغه مدعاة لالحاقه في مدرسة وستمنستر WESTMINSTER.

وهي من المدارس ذات المستوى الرفيع، وفيها واصل فيلبي تفوقه العلمي

(١) سانت جون فيلبي، بعثة إلى نجد ١٣٣٦هـ - ١٣٣٧هـ/ ١٩١٧ - ١٩١٨م، قدم لهذا العمل تاريخيا وترجمه وعلق عليه، عبد الله الصالح العثيمين، ط ١، الرياض، ١٤١٨هـ، ص ٥٣.

(2) ELIZABETH MONROE, OP. CIT, P 14.

حيث كان الأول على زملائه كما برزت عنده مواهب بدنية وفكرية وقيادية أخرى أغرت المحيطين به على إلحاقه بمراحل تعليمية أعلى [١].

فمن هذه المدرسة، وفي عام ١٩٠٤م انتقل فيلبي إلى مدينة كيمبرج الشهيرة بجامعتها وكلياتها المختلفة ليلتحق هناك في كلية دينية من كلياتها هي كلية (التثليث) ترنتي TRINITY COLLEGE حيث تخرج فيها وبدرجة امتياز في اللغات الحية عام ١٩٠٧م[٢].

ومثله مثل كثير من المتخرجين من هذه الكلية توجه فيلبي بعد تخرجه بطلب الالتحاق بخدمة التاج البريطاني عن طريق حكومة الهند البريطانية، وبدأت ملامح النجاح في مسعاه حين اجتاز أول الامتحانات المطلوبة للعمل[٣]. واستكمالاً لمتطلبات العمل الجديد التحق فيلبي مرة أخرى بجامعة كمبردج لدراسة اللغتين الفارسية والهندية لمدة عام واحد [٤].

وفي عام ١٩٠٨م توجه فيلبي إلى الهند لمباشرة عمله فيها، وليواصل طموحاته العلمية والعملية. وتمثلت الطموحات العلمية بتعلم المزيد من اللغات الشرقية حيث تعلم اللغة البنجالية والأوردية ثم العربية كما بدأ في الهند بتعلم القرآن الكريم.

أما الطموحات العملية فتظهر من خلال تدرج فيلبي في الوظائف الإدارية والإعلامية التي أظهر فيها مقدرة وكفاءة عالية، وبرهن خلالها على

(١) خيري حماد، عبد الله فيلبي قطعة من تاريخي العرب الحديث، ط ١، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر بيروت، ابريل ١٩٦١م، ص ٢٩، ٢٠.

(٢) نورتون، فيلبي رجل الجزيرة العربية، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة الكويت، السنة الأولى، العدد الثالث، جمادى الآخرة ١٣٩٥هـ، ص ١٥٢.

(٣) ELAZABETH MONROE, OP. CIT, PP 14 - 17.

(٤) نورتون، المرجع السابق، ص ١٥٢.

قدرة فائقة في التحمل والتغرب حين ظل يعمل في الهند عشر سنوات متواصلة لم يرجع فيها إلى إنجلترا ولا مرة واحدة[١].

ويعيد التاريخ نفسه، ولكن هذه المرة في الهند، وفي إحدى الحفلات التي اقيمت في أحد الأندية الخاصة بالبريطانيين تعرف فيلبي على دور جونسون DORA JOHNSTON بنت أحد المهندسين البريطانيين في سكة حديد روانبدي واقترن بها، وكان ذلك في سبتمبر من عام ١٩١٠م[٢].

وكان اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م، ومن ثم تطور الأوضاع البريطانية في الشرق نقطة تحول أخرى في حياة فيلبي.

فيبدو أن للمواهب التي تميز بها فيلبي خاصة تعلمه العربية ومعرفته بعادات وتقاليد وديانة العرب دور في وقوع الاختيار عليه للتوجه إلى العراق للمساعدة في إدارة الشؤون البريطانية في أعقاب نجاح البريطانيين في الهيمنة عليها وإجبار العثمانيين على الانسحاب منها [٣].

وكانت الشؤون البريطانية في العراق في تلك الفترة تحت إدارة السير برسي كوكس أحد الرجالات البارزين في إدارة الشؤون البريطانية في الشرق [٤].

وفي العراق وبإشراف وتدبير مباشر من كوكس كلف فيلبي في العمل ضمن الفريق المكلف بإعادة بناء التنظيم الإداري للبصرة الذي كان يتطلب

---

(١) خيري حماد، المصدر السابق، ص ٣٠ ، ٣١ .

(٢) ELAZABETH MONROE, OP. CIT, PP 32 - 35.

(٣) SARI J. NASIR, THE ARABS AND THE ENGLISH, SECOND EDITION, LONMAN, LONDON, 1979, P 129.

(٤) للمزيد عن حياة كوكس انظر المؤلف الخاص بالترجمة لحياته :

THE LIFE OF SIR PERCY COX, BY PHILIP GRAVES, SECOND OMPRESSION, HUTCHINSON & CO, LINDON

عملاً شاقاً خاصة أن العثمانيين قاموا بأخذ السجلات الحكومية معهم عند انسحابهم منها. كما كلف فيلبي بمهمات أخرى مثل مهمة جمع الضرائب، والإشراف على إصدار جريدة للدعاية البريطانية(١).

ونتيجة للنجاحات التي حققها فيلبي في مهماته فقد ترقى في المناصب حتى كلف بالعمل في بغداد مساعداً لكوكس في إدارة الشؤون البريطانية في العراق (٢).

وخلال الحرب العالمية الأولى وبالتحديد في عام ١٩١٧م بدأت صلات فيلبي في الجزيرة العربية عامة والملك عبد العزيز خاصة.

ففي ذلك العام كانت الساحة الإقليمية في الجزيرة العربية تغلي بالصراع بين عدد من الأطراف السياسة، مثل ابن سعود المتمركز في غالبية مناطق نجد وشرق الجزيرة العربية، وابن رشيد المتمركز في مناطق حائل وشمالها، والأشراف المنتشرة في مناطق غرب الجزيرة العربية إضافة إلى مناطق الأردن وما جاورها من الشرق ومن الغرب.

وكان كل فريق من هذه الفرق يسعى بالطبع لخدمة مصالحه الخاصة بغض النظر عن تأثير ذلك في مسار المصالح البريطانية. وكانت بريطانيا تحاول جاهدة في تلك الفترة تسيير الأمور لمصلحتها العليا (٣). وكان تسيير المصلحة يقتضي أحيانا تقريب وجهات النظر بين الفرقاء، وفي أحيان أخرى كانت المصلحة البريطانية في تطبيق السياسة البريطانية المعروفة، الناجحة،

(١) روبن بدول، الرحالة الغربيون في جزيرة العرب، ترجمة الدكتور عبد الله آدم نصيف، ط ١، الرياض ١٤٠٩هـ، ص ٩١.

(٢) سانت جون فيلبي، بعثة إلى نجد، ص ٥٥، ٥٦.

(٣) SARI J. NASIR, OP, CIT, PP 129, 130.

وهي سياسة (فرق تسد).

ومن باب التنسيق بين الأجهزة البريطانية مصلحة في الشرق فقد جاءت التحركات البريطانية لتسيير المصالح البريطانية في مناطق شبه الجزيرة العربية بالتنسيق بين أجهزتها الإدارية في العراق التابعة في إدارتها للإدارة البريطانية في الهند، وبين أجهزتها الإدارية في مصر التي تدار من لندن مباشرة.

وفي تلك الفترة كان العقيد ستورز موفداً من مصر إلى العراق ورأى الجهازان البريطانيان في العراق وفي مصر أن من المناسب تكليف العقيد ستورز، في طريق عودته إلى مصر، بعبور الجزيرة العربية [1].

وتحددت أهداف مهمة العقيد ستورز، وفق ما جاء في التقارير البريطانية بالآتي:

١ - زيارة ابن سعود في موقعه في القصيم، وإحاطة السير بيرسي كوكس بوضعه وبحجم قوته العسكرية وتقدير مدى تأثير كل ذلك في ميزان الصراع على الجبهة العثمانية.

٢ - محاولة تقريب وجهات النظر بين ابن سعود وبين الأشراف في الحجاز بإزالة مخاوفهما من بعضهما البعض لهدف تحسين العلاقات فيما بينهما.

وهكذا فقد عملت الترتيبات اللازمة للقيام بالرحلة المنتظرة، وفي التاسع من يونيو من عام ١٩١٧م غادر العقيد ستورز الكويت بصحبة قافلة من الجمال والجمالين من أهل الزلفي الذين كانوا يشتهرون بهذه المهنة.

(١) عن هذه البعثة (الفاشلة) انظر: سانت جون فيلبي، بعثة إلى نجد، ص ٥٦، ٥٧.

ويبدو أن البريطانيين قد أساءوا اختيار التوقيت المناسب للرحلة. فمن المعلوم أن شهر يونيو من الأشهر التي تشتد فيها الحرارة في الجزيرة العربية، ولذلك لم يستطع العقيد ستورز أن يحتمل حرارة الشمس وخاف ضرباتها التي بدأت تعييه، ولذلك وبعد أربعة أيام فقط من انطلاقته من الكويت عاد العقيد ستورز أدراجه مرة أخرى مقررا بالنسبة له إلغاء الرحلة والعودة إلى مصر عن طريق البحر، ومقترحاً بالنسبة لغيره تأجيلها إلى وقت مناخي أنسب من ذلك الوقت.

وبعد حوالي شهرين من رحلة ستورز الفاشلة، ومع ازدياد تدهور الأوضاع السياسية بين القوى السياسية فيها، ولضرورة تدارك المصالح البريطانية، وحيث إن الظرف المناخي أصبح أكثر ملائمة من ذي قبل خاصة مع اعتدال الجو، جددت الأجهزة البريطانية في العراق محاولاتها المعلقة بإرسال بعثة إلى شبه الجزيرة العربية للسعي لتحقيق الأهداف المحددة للبعثة السابقة، مع الأخذ في الاعتبار ما طرأ من تطورات في الأوضاع خلال الشهرين الأخيرين.

وتحسباً لتلك التطورات فقد اقترح السير بيرسي كوكس على حكومته أن تكون البعثة الجديدة أكثر ثقلاً في الكيف والكم من البعثة السابقة، كما أخذ في الاعتبار أن تكون البعثة ممثلة لعدد من المصالح البريطانية. فقد إقترح أن تمثل البعثة بممثل عن المندوب السامي البريطاني في مصر، وبممثل عن ملك الحجاز للمشاركة في المداولات التي ستجريها البعثة. كما اقترح أن يقوم الوكيل السياسي البريطاني في الكويت العقيد هاملتون بمرافقة البعثة لتمثيل المصالح السياسية لشيخ الكويت سالم الصباح.

وحيث إن المصالح العسكرية كانت هدفاً رئيساً للبعثة فقد اقترح أن يرافق البعثة ممثل متخصص في الجوانب العسكرية ليكتب تقريراً دقيقاً عن الأوضاع العسكرية المزمع دراستها.

ولتسهيل مهمة البعثة فقد تضمن الاقتراح كذلك أن تصحب البعثة بطبيب يقوم على رعاية أفراد البعثة من جانب ويقدم الخدمات الطبية لبعض الأفراد والزعامات التي ستمر بها البعثة من جانب آخر، كما اقترح أن تصحب البعثة بجهاز لاسلكي متكامل لتسهيل أمر الرسائل المتبادلة بين البعثة والأجهزة البريطانية المختلفة.

ويبدو أن تلك المقترحات الطموحة لم تلق تجاوباً كافياً من السلطات البريطانية العليا خاصة أن بريطانيا كانت في تلك الفترة تخوض معمعة الحرب العالمية الأولى وتعيش أوج ويلاتها التي تجعل السلطات فيها تعيد ترتيب الأولويات العسكرية والسياسية بين حين وآخر وفق تطورات الحرب وسير معاركها.

وعلى العموم فقد كان للتجاوب النسبي أثر في نجاح تلك البعثة البريطانية التي انطلقت في اليوم التاسع والعشرين من شهر أكتوبر من عام ١٩١٧م، وبعد تسعة أيام فقط من ورود الموافقة النهائية من السلطات البريطانية العليا بإقرار القيام بالبعثة إلى شبه الجزيرة العربية.

وكانت هذه البعثة البريطانية بأهدافها الطموحة، على ما يبدو، نقطة تحول جديدة في حياة فيلبي.

فقد وقع اختيار كوكس على مساعده الشخصي وأحد أبرز رجالاته في

العراق، فيلبي لتولي رئاسة تلك البعثة البريطانية التي كانت تهدف في المقام الأول إلى القيام بجولة مباحثات مع عدد من الزعامات العربية في الجزيرة العربية وتقريب وجهات النظر بما يخدم المصالح البريطانية فيها[١].

ومنذ ذلك الوقت انطلق فيلبي وأطلق لنفسه العنان ليقوم برحلته تلك إلى داخل شبه الجزيرة، لتكون تلك الرحلة مجرد بداية للعديد من الرحلات الرسمية المتتالية التي قام بها فيلبي في داخل الجزيرة العربية.

ويبدو أن المملكة العربية السعودية في الجزيرة العربية بحكامها وأهلها المسالمين والمحبين للخير قد استهووا فيلبي، حيث نراه بعد أن ترجل عن مهماته السياسية الرسمية في تلك المنطقة لصالح الحكومة البريطانية قد وطد علاقته بالملك عبد العزيز آل سعود - طيب الله ثراه - ، واتخذ من المملكة العربية السعودية له مقراً ومقاماً حيث قضى فيها معظم بقية حياته وفضل العيش فيها وحط فيها رحاله، ليتفرغ بعد ذلك للتجارة وللتاريخ والترحال بحثاً عن الجديد في عالم التاريخ والآثار[٢].

---

(١) يمكن الاطلاع على تفصيلات هذه البعثة من خلال التقرير الخاص بالبعثة الذي كتبه وقام الأستاذ الدكتور عبد الله الصالح العثيمنين بالتقديم له وترجمته.
انظر: سانت جون فيلبي، بعثة إلى نجد، الصفحات ٧٣ - ٢٢٣.

(٢) عن حياة فيلبي في الجزيرة العربية يمكن الاطلاع على مؤلفه الخاص الذي اطلق عليه اسم (الأيام العربية) والمنشور باللغة الإنجليزية في لندن عام ١٩٤٨م.

PHILBY, HARRY, St JOHN. B, ARABIAN DAYS, LONDON, 1948.

أما عن علاقاته بالملك عبد العزيز، ومواقفه السياسية من بعض الأحداث في الجزيرة العربية وموقف الملكة العربية من قضية فلسطين، فيمكن الاطلاع على ما ذكره خير الدين الزركلي في كتابه شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز:
خير الدين الزركلي، شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز، ط ٦، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩٣م، ج ٣ الصفحات ١١٣٤ - ١٣٣٨، ج ٤ الصفحات ١٣٥٨ - ١٣٦٤.

وقد ظهرت آثار تلك العلاقة الوطيدة بين فيلبي وشبه الجزيرة العربية وحكامها وأهلها بما سطره وأظهره فيلبي من مؤلفات ومقالات عديدة عن تاريخ تلك المنطقة وأهلها وآثارها على نحو ما سيأتي الحديث عنه في بقية صفحات هذه الدراسة .

obeikandl.com

فيلبي الرحالة والمؤرخ :

إن المتتبع لتاريخ وحياة فيلبي وآثاره يلحظ أنه كما برز في الجانب السياسي فقد برز كذلك في جانب التاريخ والآثار. وإن الكتاب الذي بين أيدينا لفيلبي ليس إلا نموذجاً واحداً من نتاج تاريخي غزير، ومؤلفات عديدة قام فيلبي بتأليفها ونشرها، جمع فيها بين التاريخ والآثار.

وتعتبر أبرز مؤلفات فيلبي التي تدور في فلك هذين الفنين المتلازمين، مرتبة بحسب تاريخ صدورها، ما يأتي :

١ – قلب الجزيرة العربية THE HEART OF ARABIA

وقد صدر الكتاب في لندن عام ١٩٢٢م، ولذلك يعد الكتاب من أقدم، بل إذا ما استبعدنا التقارير الرسمية التي نشرت لفيلبي، فربما يكون هذا الكتاب أقدم المؤلفات التي نشرت لفيلبي.

والكتاب مكون من جزءين الأول ٣٨٦ صفحة والثاني ٤٥٣ صفحة وفي هذا الكتاب بجزءيه جمع فيلبي بين التاريخ والجغرافيا والآثار من خلال ما أورده من معلومات عن المناطق المختلفة التي مر بها في بعض رحلاته التي قام بها في عدد من مناطق شرق ووسط وغربي الجزيرة العربية في الفترة قبيل نشر الكتاب (١).

٢ – الجزيرة العربية، ARABIA OF THE WAHHABIES

ونشر هذا الكتاب في لندن عام ١٩٢٨م. وفي هذا الكتاب البالغ عدد صفحاته ٤٣٣ صفحة تحدث المؤلف عن تاريخ الدولة السعودية في عصورها

(١) PHILBY, HARRY, St JOHN. B, THE HEART OF ARABIA, LONDON, 1922.

المختلفة بدءاً من تاريخ آل سعود في إمارة الدرعية والتطورات السياسية التي صاحبت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ونصرة آل سعود لها وتأسيس الدولة السعودية الأولى نتيجة الحلف بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب والإمام محمد بن سعود، ثم يستمر في تتبع أخبار الدولة السعودية وتطوراتها في الدولة الأولى والدولة الثانية إلى أن يصل بالحديث إلى تاريخ الدولة السعودية في عهد الملك عبد العزيز في مراحله المختلفة حتى زمن صدور الكتاب.

وركز فيلبي في الكتاب على علاقة الملك عبد العزيز بالإخوان في مناطق نجد، وكيف استطاع الملك عبد العزيز بحزمه وحكمته أن يتعامل مع تلك المعضلة الكبيرة التي واجهته جراء تعصبهم ومواقفهم المتشددة من المخترعات الحديثة[1].

والكتاب في الحقيقة يعد أصلاً لكثير من الأعمال التاريخية اللاحقة التي كتبها فيلبي فيما بعد عن تاريخ الدولة السعودية في مراحلها المختلفة، حيث يلحظ أنه كثيراً ما بنى كتبه اللاحقة على هذا الكتاب، ثم يضيف إلى الجديد منها ما يستجد من معلومات تاريخية بحكم امتداد الزمن التاريخي للكتب الجديدة أو بحكم المعلومات الجديدة التي يحصل عليها فيلبي من اطلاعه على بعض المصادر الجديدة التي لم يطلع عليها من قبل أو بحكم المعرفة التراكمية الجديدة التي اكتسبها من خلال بقائه مدة أطول في الجزيرة العربية.

(١) PHILBY, HARRY, St JOHN. B, ARABIA OF THE WAHHABIES, LONDON, 1928.

٣ – الجزيرة العربية ARABIA

ونشر هذا الكتاب في نيويورك عام ١٩٣٠م. وفي هذا الكتاب الذي بلغت عدد صفحاته ٣٨٧ صفحة تتبع فيلبي تاريخ آل سعود والدعوة السلفية في نجد منذ انطلاقتها إلى أن وصل بالأحداث القريبة من تاريخ نشر الكتاب المتعلقة بتاريخ الملك عبد العزيز وجهوده في تأسيس وتوحيد الدولة السعودية في طورها الثالث(١).

٤ – الربع الخالي THE EMPTY QUARTER

ونشر الكتاب في لندن عام ١٩٣٣م. وفي هذا الكتاب البالغ عدد صفحاته ٤٣٣ صفحة قدم فيلبي وصف وصفاً جغرافياً وآثارياً لرحلته المميزة التي قطعها عبر الربع الخالي والتي استغرقت حوالي ثلاثة أشهر، كاد فيلبي أن يفقد فيها حياته أكثر من مرة. وقد ألحق فيلبي كتابه هذا بمجموعة من الخرائط والصور والأشكال التي توضح المعالم والآثار التي عبر بها فيلبي خلال رحلته(٢).

٥ – بنات سبأ : يوميات رحلة إلى جنوب الجزيرة العربية
SHEBA'DAUGHTERS: BEING A RECORD OF TRAVEL IN SOUTHREN ARABIA.

ونشر الكتاب في لندن عام ١٩٣٩م، وتبلغ صفحاته ٤٨٥ صفحة. وفيه كتب فيلبي وصفاً دقيقاً لأحداث الرحلة التي قام بها إلى جنوب الجزيرة العربية، ووصف المعالم التاريخية والآثار التي مر بها خلال رحلته. كما أعطى وصفاً للسكان المعاصرين وعاداتهم وتقاليدهم وأجناسهم من خلال

(١) PHILBY, HARRY, St JOHN. B, ARABIA, NEW YORK, 1930.
(٢) PHILBY, HARRY, St JOHN. B, THE EMPTY QUARTER, LONDON, 1933.

ما سجله في رحلته من انطباعات شخصية ومن خلال قراءاته التاريخية عن المنطقة(١).

٦ - حاج في الجزيرة العربية A PILGRIM IN ARABIA

ونشر الكتاب في لندن عام ١٩٤٦م، ومقارنة بغيره من مؤلفات فيلبي الأخرى يعد هذا الكتاب من أقصر مؤلفات فيلبي حيث بلغ ١٩٨ صفحة فقط.

وفيه تحدث فيلبي عن رحلته التي قام بها للحج بعد اعتناقه الإسلام عام ١٩٣١م، ووصف فيه الحج في تلك السنة والمشاعر المقدسة التي مر بها خلال رحلته في المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة، مع ذكر شيء من تاريخ تلك المشاعر والمساجد التاريخية التي تحدث فيها خلال الكتاب.

كما سجل فيلبي في الكتاب شيئاً من تاريخ بعض الأماكن الأخرى في الجزيرة العربية وبالذات الرياض. وطَعَّم فيلبي كتابه هذا ببعض الصور التي التقطها خلال تلك الفترة والتي تزيد من أهمية الانطباعات المكتوبة وتدعمها(٢).

٧ - خلفية الإسلام BACKGTOUND OF ISLAM

ونشر الكتاب في الاسكندرية عام ١٩٤٧م، وهو كذلك من الكتب القصيرة التي كتبها فيلبي، حيث بلغت صفحاته ١٥٢ صفحة فقط.

---

(١) PHILBY, HARRY, St JOHN. B, SHEBA'S DAUGHTERS: BEING A RECORD OF TRAVEL IN SOUTHREN ARABIA, LONDON, 1939.

(٢) PHILBY, HARRY, St JOHN. B, A PILGRIM IN ARABIA, LONDON, 1946.

وهو من الكتب التي جمع فيها بين التاريخ والآثار حيث سرد فيلبي في هذا الكتاب تاريخ خمسة قرون تاريخية سبقت قيام البعثة النبوية في مكة المكرمة.

واعتمد فيلبي في كتابه هذا على عدد ضخم من النقوش الأثرية التي عثر عليها خلال رحلاته في مناطق الجزيرة العربية والتي قام بدراستها وقراءة نصوصها وترجمتها إلى اللغة الإنجليزية ونشر جزء منها خلال دراسته التاريخية هذه عن الجزيرة العربية قبل الإسلام[١].

٨ – الأيام العربية ARABIAN DAYS

ونشر الكتاب في لندن عام ١٩٤٨م. وهذا الكتاب عبارة عن سيرة ذاتية كتبها فيلبي عن نفسه.

ففي هذا الكتاب البالغ عدد صفحاته ٣٣٦ صفحة روى وكتب فيلبي قصة حياته منذ طفولته في بريطانيا إلى الفترة التي نشر فيها الكتاب والتي كان يعيش فيها شيئاً من أيامه الذهبية في الجزيرة العربية في كل رعاية خاصة من الملك عبد العزيز، رحمه الله[٢].

٩ – النجود العربية ARABIAN HIGH LANDS

ونشر الكتاب في عام ١٩٥٢م، وهو من الأعمال الميدانية الكبيرة التي جمع فيها فيلبي بين الدراسات التاريخية المعاصرة والدراسات الآثارية القديمة.

---

(١) PHILBY, HARRY, St JOHN. B, THE BACKGROUND OF ISLAM, ALEXANDRIA, EGYPT

(٢) PHILBY, HARRY, St JOHN. B, ARABIAN DAYS, LONDON, 1948.

ففي هذا الكتاب البالغ عدد صفحاته ٧٧١ صفحة سجل فيلبي وصفاً تاريخياً وجغرافياً لمناطق جنوب غربي الجزيرة العربية ومرتفعاتها وسكانها وآثارها من واقع الرحلة الشخصية التي قام بها إلى تلك المناطق[١].

١٠ – اليوبيل الذهبي للجزيرة العربية ARABIAN JUBILEE

وصدر هذا الكتاب في لندن بمناسبة مرور خمسين عاماً على تأسيس المملكة العربية السعودية عام ١٩٥٢م، وذلك باعتبار التاريخ الميلادي هو الأساس في حساب السنين منذ استرداد الرياض على يد الملك عبد العزيز وبداية رحلة التأسيس في عام ١٩٠٢م.

وفي هذا الكتاب البالغ عدد صفحاته ٢٨٠ صفحة سجل فيلبي ومن واقع مشاهداته وانطباعاته الشخصية ومن واقع صناعته لبعض الأحداث، تاريخ المملكة العربية السعودية عامة وعلاقاتها الخارجية مع بريطانيا ومع غيرها من البلدان والدول المجاورة، وتتبع فيلبي بشكل خاص تاريخ وتحركات المؤسس الملك عبد العزيز منذ انطلاقته في رحلة التأسيس إلى أن أكمل بناء الدولة، وانصرف لتطوير الأوضاع المختلفة فيها على مدى خمسين عاماً من عمر المملكة العربية السعودية[٢].

وهذا الكتاب من الكتب القلائل لفيلبي التي ترجمت إلى اللغة العربية، وقام على ذلك الأستاذ مصطفى كمال فايد بمتابعة من الشيخ عبد الرؤوف

(١) PHILBY, HARRY, St JOHN. B, ARABIAN HIGHLANDS, CORNELL UNIVERSITY PRESS, 1952.

(٢) PHILBY, HARRY, St JOHN. B, ARABIAN JUBILEE, LONDON, 1952.

الصبان، ونشرت الترجمة العربية البالغ عدد صفحاتها ٣٨٥ صفحة في القاهرة عام ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م[١].

١١ – العربية السعودية SAUDI ARABIA

ونشر هذا الكتاب في لندن عام ١٩٥٥م وسنترك الحديث عنه لاحقاً حيث إنه هو الكتاب الذي بين أيدينا ترجمته.

١٢ – أربعون عاماً في القفار FORTY YEARS IN THE WILDERNESS

وفي هذا الكتاب الصادر في لندن عام ١٩٥٧م أعاد فيلبي نشر كثير مما نشره في كتبه السابقة عن حياته الشخصية ونشاطاته المختلفة في الجزيرة العربية، مع تتبع آخر لتاريخ المملكة العربية السعودية وتطور الأحداث فيها خلال الأربعين عاما هي الفترة ما بين عام ١٩١٧م أي منذ بدأ فيلبي نشاطاته في الجزيرة العربية إلى أن يقترب بالأحداث من عام ١٩٥٧م وهو تاريخ صدور الكتاب[٢].

وبالإضافة إلى المؤلفات التاريخية العامة التي نشرت لفيلبي يوجد عدد من المؤلفات التي لم تنشر والتي بقيت محفوظة في أوراق فيلبي الخاصة المحفوظة في كلية سانت انتوني في اكسفورد ST. ANTONY'S COLLEGE ، وقد قامت الباحثة إليزابيث منرو بتتبع تلك الأوراق ثم قامت بعمل حصر وراقي لها وأوردت قائمة بأكثر من عشرة مؤلفات لم تنشر ألحقتها في نهاية دراستها القيمة عن حياة فيلبي[٣].

---

(١) عبد الله سنت جون فيلبي، الذكرى العربية الذهبية، ترجمة مصطفى كمال فايد، القاهرة مطبعة الاعتماد، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م.

(٢) PHILBY, HARRY, St JOHN B, FORTY YEARS IN THE WILDERNESS, LONDON, 1957.

(٣) ELIZABETH MONROE, OP. CIT, PP 308, 309.

وعلاوة على تلك المؤلفات المنشورة وغير المنشورة فقد سطر فيلبي عدداً من التقارير والمراسلات الرسمية التي كتبها فيلبي ورفعها إلى الجهات البريطانية من واقع بعض المهمات الرسمية التي كلف بها في شبه الجزيرة العربية.

وتعد التقارير التي كتبها فيلبي من المصادر التاريخية الأولية للمؤرخين للفترات التاريخية التي تغطيها تلك التقارير.

وتكتسب التقارير أهميتها من عدة جوانب منها :

أولاً : إن فيلبي قد كتب تلك التقارير من واقع خبرة ودراية هي نتاج مشاهدته للأحداث، وجاءت من واقع مسؤوليته التي أتاحت له أن يكون قريباً من مطابخ قرارات وصناعة الأحداث التي شارك فيلبي في صناعة كثير منها.

ثانياً : إن تلك التقارير بها طابع التقارير البريطانية الرسمية التي تكتب عادة من قبل رجال الإدارة والسياسة والحرب البريطانيين والتي تستخدم بالدرجة الأولى للأغراض والشؤون الرسمية لصياغة وبناء السياسات والاستراتيجيات البريطانية في المنطقة اعتماداً على تلك التقارير وما شابهها من الوثائق الرسمية المتبادلة بين الأجهزة البريطانية المختلفة.

ولذلك فإن كُتّاب التقارير يحرصون دائماً على توخي الدقة فيما يكتبون من تقارير لعلمهم بأهمية وخطورة ما يبنى عليها من أمور تمس المصالح العليا لبلادهم.

وتحتفظ دور الوثائق البريطانية بعدد من التقارير الرسمية التي كتبها فيلبي خلال سنوات عمله في شبه الجزيرة والتي ينطبق عليها ما ذكرناه من أهمية.

ومن أبرز التقارير ما يعرف باسم: بعثة إلى نجد، وهو مؤرخ في ١٢ نوفمبر ١٩١٨م. وسجل فيه فيلبي وصفاً مفصلاً للمهمة الأولى التي قام بها إلى وسط الجزيرة العربية والتي تحدثنا عنها سابقاً في هذه الدراسة، والتي كانت تهدف إلى دراسة الأوضاع السياسية والعسكرية للقوى الموجودة في وسط الجزيرة العربية، وبالذات ابن سعود وابن رشيد والشريف، ومحاولة تقريب وجهات النظر بما يضمن استقرار واستمرار المصالح البريطانية في المنطقة.

وهذا التقرير هو التقرير الذي قام بترجمته والتقديم له تاريخياً والتعليق عليه الأستاذ الدكتور عبد الله بن صالح العثيمين.

ونشر وطبع في مطابع العبيكان في الرياض عام ١٤١٨هـ بعنوان بعثة إلى نجد ١٣٣٦ - ١٣٣٧هـ/ ١٩١٧ - ١٩١٨م. وهو التقرير الذي اعتمدت عليه هذه الدراسة فيما يتصل بتفصيلات البعثة الأولى التي قام بها فيلبي إلى داخل الجزيرة العربية، وكنا قد أشرنا إلى ذلك في موقعه من الدراسة سابقاً.

ويتصل بهذا التقرير، التقرير الذي كتبه الوكيل البريطاني في الكويت السيد هاملتون الذي رافق فيلبي في مهمته وكتب تقريراً مشابهاً لتقريره، بعنوان: يوميات رحلة هاملتون إلى نجد[١].

وهذا التقرير محفوظ في سجلات الوكالة البريطانية في الكويت في مكتب الهند في لندن تحت اسم:

DIARY OF COLONEL HAMILTON'S VISIT TO NAJD

1918: MISSION TO IBN SAUD 19/9/17 - 28/12/1918.

(١) I. O. R. R/15/5/104.

ومن التقارير الأخرى المشابهة بهذا التقرير، تقارير أخرى من إعداد فيلبي محفوظة في أرشيف مكتب الهند في لندن المعروف بـ :

INDIA OFFICE LIBRARY AND RECORDS

ومثال ذلك التقرير المحفوظ في أرشيفات الوكالة البريطانية في الكويت ومسجل بعنوان : بعثة إلى نجد، ٢ فبراير ١٩١٨ - ٢ نوفمبر ١٩٢٥[١].

PHILBY'S MISSION TO NAJD, 2/2/1918 - /11/1925.

وتقرير آخر يحمل عنوان :

بعثة فيلبي إلى ابن سعود بتاريخ ١٩ أبريل إلى ٢ أغسطس ١٩١٨، ويتعلق بالنزاع بين نجد والكويت بسبب ما يسمى بتجارة البر أو المسابلة بين البلدين، وموقف بريطانيا من ذلك النزاع[٢].

والتقرير محفوظ في الأرشيف البريطاني نفسه باسم :

PHILP'S MISSION TO IBN SA'UD ; FRICTION BETWEEN NAJD & KUWAIT BECAUS OF BRITSH BLOCKADE OF LAND TRADE, 19 APR - 2 AUG. 1918.

وبالإضافة إلى تلك المؤلفات والتقارير التي كتبها فيلبي، فقد كتب فيلبي عدداً كبيراً من المقالات والأبحاث التي نشرت في عدد من المجلات والدوريات التي كانت تصدر في تلك الفترة في بريطانيا وفي مصر وغيرها.

وقد قامت الباحثة إليزابيث مونرو كذلك بعمل حصر وراقي لأكثر من خمسين مقالة من كتابات فيلبي المختلفة، وألحقت قائمة بذلك في نهاية عملها عن حياة فيلبي[٣].

وصنفت مونرو القائمة وفق محاور الموضوعات التي تناولتها كتابات فيلبي، وكانت بحسب التصنيف الآتي : -

(١) I. O. R, R/15/5/66 , 62/16.
(٢) I. O. R, R/15/5/101 , 8/C.
(٣) ELIZABETH MONROE, OP, CIT, PP 309 - 312.

١ - مقالات عن رحلاته في صحراء الجزيرة العربية.
٢ - مقالات عن تطوير أو مناقشة لرحلات قام بها غيره.
٣ - مقالات عن التاريخ الحديث لشبه الجزيرة العربية.
٤ - مقالات عن العلاقات العربية الإنجليزية.
٥ - مقالات عن الإسلام.
٦ - مقالات عن الفترة ما قبل الإسلام.
٧ - مقالات لموضوعات متعددة.

محاور الكتاب :

يتكون الكتاب الذي بين أيدينا من أحد عشر فصلاً متوازنة إلى حد ما، تناول المؤلف فيها تاريخ آل سعود منذ استقرارهم في الدرعية في أواسط القرن التاسع الهجري ومروراً بتأسيس إمارتهم فيها وتطورها إلى دولة بعد التحالف بين آل سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب في أواسط القرن الثاني عشر الهجري، والتطور السياسي الذي شهدت الدولة في أطوارها الثلاثة إلى نهاية عهد مؤسس المملكة العربية السعودية؛ الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل، طيب الله ثراه وغفر له ولوالديه.

وخصص المؤلف الفصل الأول من الكتاب للحديث عن تاريخ آل سعود وعلاقاتهم السياسية والإدارية بالتكتلات السياسية المتناثرة في وسط الجزيرة العربية منذ استقرارهم في الدرعية إلى الفترة قبيل قيام الدولة السعودية الأولى في منتصف القرن الثاني عشر الهجري.

أما الفصل الثاني فتحدث فيه المؤلف عن تاريخ الدولة في زمن مؤسسها الإمام محمد بن سعود وتتبع الأحداث منذ البداية إلى نهاية عهده، رحمه الله في ١١٧٩هـ/ ١٧٦٥م.

وفي الفصل الثالث واصل المؤلف الحديث عن تاريخ الدولة السعودية في عهد أحد أبرز رجالاتها وهو الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود الذي امتد حكمه طويلاً إلى أن قتل، رحمه الله، غيلة وهو ساجداً يصلي صلاة العصر في الدرعية عام ١٢١٨هـ/ ١٩٠٣م.

وعلى النسق نفسه خصص المؤلف الفصل الرابع للحديث عن الإمام سعود بن عبد العزيز الذي واصلت الدولة السعودية في عهده اتساعها وتطورها واستقرارها، والذي في عهده كذلك بدأت معاناة الدولة من التدخل العثماني عن طريق القوات المصرية، واستمر المؤلف بسرد أحداث تلك الفترة في هذا الفصل إلى نهاية عهد الإمام سعود بن عبد العزيز بوفاته، رحمه الله، عام ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م.

وفي الفصل الخامس واصل المؤلف الحديث عن تاريخ الدولة وسير الأحداث فيها والضغوط المصرية في عهد الإمام عبد الله بن سعود الذي اضطر في النهاية للتسليم للقوات المصرية؛ بقيادة إبراهيم باشا. حيث أنهى المؤلف هذا الفصل بالحديث عن كيفية استسلام الإمام عبد الله وهدم الدرعية من قبل إبراهيم باشا في عام ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م، وبه انتهى فصل مهم في تاريخ آل سعود وانتهى طور من أطوارها التاريخية.

وبدأ المؤلف الفصل السادس من الكتاب بتتبع محاولة محمد بن مشاري ابن معمر تولى الزعامة في نجد وإقامة سلطة جديدة على إنقاض السلطة السعودية السابقة، ثم تتبع بعد ذلك الصراع السياسي والعسكري الذي دار بينه وبين مشاري بن سعود الذي نازعه السلطة، وكيف كان ذلك الصراع يصب في مصلحة الإمام تركي بن عبد الله بن الإمام محمد بن سعود الذي استطاع في النهاية أن يصل إلى سدة الحكم وأن يقيم دولة آل سعود راسخة وقوية في الجزيرة العربية من جديد.

ولذلك يرى كثير من المؤرخين أن الإمام تركي هو المؤسس الحقيقي للدولة السعودية الثانية، والذي استقر له الحكم بسيطرته على الرياض واتخاذها لأول مرة مقراً للدولة السعودية العائدة من جديد في عام ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٤م إلى أن قتل فيها، غيلة، رحمه الله، في أواخر عام ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٤م.

وخصص المولف الفصل السابع للحديث عن تاريخ الإمام فيصل بن تركي الذي استرد السلطة من بعد أربعين يوماً فقط من قتل والده، وكان ذلك في مطلع عام ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م.

وخلال هذا الفصل تتبع المؤلف تاريخ الإمام فيصل بفترتيه الأولى والثانية، كما ركز المؤلف الحديث على العلاقات الخارجية للدولة السعودية في عهد الإمام فيصل، إلا أنه لم يتحدث، كما يفترض عن رحلة المقيم البريطاني في الخليج الكولونيل لويس بلي إلى الرياض رغم أهميتها التاريخية ورغم أنه بنفسه في نهاية الفصل قد أشار إلى استغرابه من عدم حديث المصادر المحلية عن الرحلة.

ولعل هذا مما يدعونا إلى القناعة بأن فيلبي قد وقع بالفعل أسيراً للمصادر المحلية التي تحدثت عن تاريخ تلك الفترة ولم يحاول الخروج عن الخط الذي سارت عليه، وهذا مما يؤخذ على مؤرخ مثل فيلبي يمتلك الخبرة والمعلومات التاريخية التي يفترض فيها أن تظهر في مثل هذه الموضوعات وخاصة أن الأمر يتصل بالعلاقات السعودية البريطانية التي خاض فيلبي غمارها، اللهم إلا إذا كان فيلبي قد ترك عن قصد الخوض في تفصيلات مثل تلك الرحلات كرحلة بلي وغيرها من الرحلات الرسمية المشابهة.

وفي الفصل الثامن تابع فيلبي الحديث عن تاريخ الدولة السعوية الثانية خلال الفترة التالية لحكم الإمام فيصل بن تركي، وتتبع في الفصل نفسه الصراعات التي دارت بين أبنائه وكيف أدت تلك الظروف إلى نهاية الدولة السعودية الثانية وظهور بعض القوى الجديدة على حسابها.

وفي الفصل التاسع يبدأ فيلبي الحديث عن مرحلة جديدة من تاريخ الدولة السعودية في عهد مؤسسها وباني وحدتها الملك عبد العزيز، طيب الله ثراه.

وخصّ فيلبي هذا الفصل عن عدد من موضوعات الوحدة السعودية، حيث بدأها بالحديث عن انطلاقة الملك عبد العزيز في مسيرة التوحيد الطويلة باسترداد الرياض في شوال من عام ١٣١٩هـ/ ١٩٠٢م، ثم واصل الحديث عن ضم الملك عبد العزيز معظم مناطق نجد وضم المنطقة الشرقية وكيف وقف بقواته على أعتاب حائل ليدق المسمار الأخير في نعش ألد خصومه ابن رشيد.

ثم واصل فيلبي في الفصل الذي يليه بعنوان التوسع والاستقرار الحديث عن معارك التوحيد التي قام بها الملك عبد العزيز لضم بقية المناطق في نجد والحجاز وجنوب الجزيرة العربية إلى دولته التي أطلق عليها المملكة العربية السعودية بعد تلك الملحمة الوطنية الرائدة التي قام بها الملك عبد العزيز، رحمه الله.

وفي الفصل نفسه تتبع فيلبي علاقة الملك عبد العزيز ببعض أنصاره السابقين من الإخوان الذين تحول بعضهم، نتيجة تعصبهم ومواقفهم الغريبة من المستجدات الحديثة، ونتيجة إصرارهم على بعض مواقفهم السياسية

المحرجة للدولة مع بعض الدول الأخرى المجاورة إلى أعداء، وكيف استطاع الملك عبد العزيز بحكمته وحنكته السياسية وحزمه أن يجنب البلاد تلك العقبة الجديدة التي كادت أن تعصف بالوحدة الوطنية والاستقرار الذي عمل الملك عبد العزيز طويلاً من أجله.

وختم فيلبي كتابه بالفصل الحادي عشر الذي خصصه للحديث عن ما أسماه بعهد الرخاء، وهي المرحلة التي تلت مرحلة حروب الوحدة الوطنية وجهود الاستقرار التي خاضها الملك عبد العزيز في سبيل ذلك، وتتميز المرحلة الأخيرة بظهور بوادر الرخاء الاقتصادي التي بدأت المملكة العربية السعودية تنعم في ظلها الوافر خاصة بعد أن أنعم الله على البلاد بظهور النفط وتدفق إنتاجه على مستوى حسن من مستوى الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي كانت البلاد تعاني منها خاصة مع إصرار الملك عبد العزيز على المضي قدماً في خطة الإصلاحات الشاملة التي بدأها بمجرد استقرار الأوضاع السياسية والأمنية.

وبإيجاز يمكن القول إن الكتاب الذي بين أيدينا عبارة عن سجل موسوعي وموضوعي متسلسل للتاريخ السعودي بمراحله المتتالية بدءاً بتأسيس إمارة آل سعود في الدرعية وانتهاءً بنهاية عهد مؤسس الدولة السعودية الحديثة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود طيب الله ثراه.

ولعلنا لذلك نقول: إن الكتاب، وبدون مبالغة، أشبه ما يكون بقصة أو رواية مترابطة الأحداث شائقة السرد، تبدأ بتتبع أحداثها بالفصل الأول، وربما يضطر شوق المعرفة إلى متابعتها والاستمرار معها إلى الفصل الأخير.

أهمية الكتاب :

يعد الكتاب الذي بين أيدينا من المؤلفات المهمة والمصادر المعتبرة في التاريخ السعودي. وتأتي أهمية الكتاب في نظري من عاملين مهمين :

الأول : الخبرة والدراية التاريخية والسياسية التي تميز بها المؤلف، ومعاصرته، بل مشاركته في صناعة كثير من أحداث التاريخ السعودي الحديث.

الثاني : من حيث أهمية المحاور التي طرقها المؤلف خاصة في الفصول الأخيرة التي تتحدث عن جوانب التطور السياسي والإداري للمملكة العربية السعودية، والتي لم تنل حظها من المؤرخين.

وبالرغم مما ذكرته من أهمية عن الكتاب، فإنني أرى أن أستدرك وأقول، من جانب آخر، بأنني ومن خلال قراءتي المتأنية لهذا الكتاب وتصور نوعية القراء الذين سيطلعون عليه بطبعته الإنجليزية، وبطبعته المترجمة إلى العربية يبدو لي أن هذا الكتاب الذي بين أيدينا يأتي في عداد الكتب التاريخية التي يصعب إعطاء حكم عام عليها من حيث الأهمية.

ففي أجزاء منه ربما لا يعطي الكتاب أي جديد لنوعية من القراء بإحدى اللغتين، وفي أجزاء أخرى قد يعدّ في غاية الأهمية لهؤلاء القراء أنفسهم، وربما كان العكس صحيحاً بالنسبة لبعض الأجزاء الأخرى من الكتاب وهكذا.

ويعود السبب في الوصول إلى هذه الحقيقة، في اعتقادي، إلى واحد أو أكثر من العوامل الآتية :

أولاً : أن الكتاب لا يختص بتاريخ فترة معينة من التاريخ السعودي أو بتاريخ شخصية من الشخصيات السياسية أو الاجتماعية أو غيرها، بل هو من الكتب التاريخية الشاملة للتاريخ السعودي منذ بداية تكوين الإمارة السعودية في نجد وتطورها إلى دولة، ثم تاريخ هذه الدولة في أطوارها التاريخية الثلاثة.

ولذلك فإن صفة المعاصرة للمؤلف، وهو هنا فيلبي، لا تنطبق إلا على الفصول الأخيرة من الكتاب، وبالتحديد فترة تاريخ الملك عبد العزيز.

وبمعنى آخر فإن أهمية الكتاب تبرز بشكل جلي في تاريخ هذه الفترة التي عاصر وعايش فيها المؤلف الأحداث، بل ربما شارك في صناعة الكثير من جوانبها.

ثانياً : ومن العوامل التي تجعل أهمية الكتاب متفاوتة نوعية القراء للكتاب، بحسب اللغة المطبوعة، فبالنسبة للقراء باللغة العربية فإني أعتقد جازماً أن الفصول الأولى من الكتاب، علاوة على ما ذكرناه سابقاً من حيث عدم أهميتها لعدم معاصرة فيلبي للأحداث، فإنها أيضاً ربما لا تضيف لهم جديداً لاعتماد فيلبي، في جلها على المصادر المحلية العربية المعروفة والمتداولة بيسر بين القراء العرب، مثل تواريخ ابن غنام وابن بشر وابن عيسى وابن ناصر.

ومن جانب آخر فإن تلك الأقسام الأولى تبدو في غاية الأهمية للقارئ الإنجليزي، أي في الطبعة الإنجليزية من الكتاب، حيث أتاح فيلبي، باعتماده على تلك المصادر المحلية العربية، للقارئ فرصة الاطلاع على محتويات تلك المصادر وبالتالي فرصة تتبع التاريخ المحلي للجزيرة العربية

من واقع مصادره المحلية العربية التي ربما لا تتاح له، وإن أتيحت له فربما وجد صعوبة في التعامل معها.

ثالثاً : ومن العوامل التي تقلل من أهمية الكتاب ما يؤخذ على مؤلفه من وقوعه أسيراً للمصادر المحلية التي استقى منها معلوماته في الفصول الأولى من الكتاب دون إعمال، في بعض المواقف، لقدراته العلمية والتاريخية المميزة التي يفترض فيها أن تجعل منه مؤرخاً قارئاً ومحللاً لتلك الأحداث أكثر من كونه ناقلاً لمحتوياتها من تلك المصادر.

ونستطيع لذلك أن نجمل القول عن أهمية الكتاب بإيجاز :

إن الكتاب في ترجمته العربية مهم في فصوله الأخيرة للقراء العرب لمعاصرة المؤلف للأحداث. وهو لغيرهم، وفي طبعته الإنجليزية، مهم في غالبية فصوله للمعاصرة عند المؤلف في فصوله الأخيرة، ولاعتماده على المصادر المحلية في أوائلها.

وأخيراً أختم حديثي عن الكتاب بالإشارة والتأكيد على أن الكتاب، مثله مثل غيره من المؤلفات التاريخية المختلفة يحمل ويمثل وجهة نظر مؤلفه، وليس بالضرورة أن تكون تلك الوجهة هي الرأي الذي نؤمن به أو نتبناه، فلكل مؤرخ الحق باتخاذ ما يراه أو يميل إليه من وجهات النظر، خاصة إذا كان الأمر مما يحتمل الاختلاف في وجهات النظر.

وحيث إن الهدف من ترجمة الكتاب ونشره باللغة العربية نقل وجهات النظر تلك كما رآها وسطرها المؤلف كاملة إلى القارئ العربي وتقريبها إليه

بأبسط صورة دون تعقيد فقد التزمت بنهج علمي واضح بترك النص الأصلي دون تدخل، وللهدف نفسه فقد حاولت جاهداً أن أحصر التعليقات على بعض النقاط في أضيق نطاق كي لا تخرج الترجمة عن أهدافها.

مرة أخرى أكرر شكري للقائمين على مكتبة العبيكان على جهودهم في نشر الكتاب متمنياً لك عزيزي القارئ وقتاً ممتعاً مع هذا الكتاب وغيره من المصادر التاريخية المهمة، والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

عمر بن صالح بن سليمان العُمري

الرياض - ربيع الآخر ١٤١٩هـ

obeikandl.com

من التمهيد

أسدل موت الملك عبد العزيز بن سعود في التاريخ من تشرين الثاني من عام ١٩٥٣ الستار على فصل مشرق من فصول العرب. وربما يأتي هذا الحدث في المرتبة الثانية من الأهمية بعد الفترة المكية التي ظهرت في القرن السابع عشر والتي شهدت فجر الإسلام كعنصر بارز في التطور الإنساني.

كما كان مقدر لمحمد ﷺ أن يكون رسولاً. كذلك كان للقدر دور في حياة عبد العزيز. كان قدر الرسول محمد ﷺ أن يعيد توجه التطلعات الروحانية ليس فقط لأبناء جلدته بل لشعوب عديدة أخرى تعيش وراء حدود شبه الجزيرة العربية. أما بالنسبة لـ «عبد العزيز بن سعود» فقد كان قدره أن يقود شعبه من مجاهل الضياع إلى أرض تزخر بالخيرات والرزق الوفير، مستخدماً لذلك الغرض نفسه السلاح الروحاني ليحقق السلام والنظام في جو تسوده الفوضى، وتتنازعه الأهواء وثقافة الجاهلية القديمة.

لم يكن الملك نفسه مفتوناً بالطرف الجديدة، لكن همومه ووهن جسده ومشاق الحياة التي عانى منها، أضعفت وبشكل تدريجي من قدرته على مقاومة تيار التطورات والابتكارات التي سرعان ما جرفت كل معالم الحضارة القديمة، ومهما يخبئ المستقبل للمملكة سيظل الملك عبد العزيز - الذي أرسى أسسها - واقفاً شامخاً في التاريخ كآخر - أو ربما كأعظم - شخصية بين عدد كبير من شخصيات القادة العرب الذين تتميز سمعتهم بإنجازاتهم الشخصية التي تحققت وسط ظروف الصحراء القاسية والحالمة على حد سواء، وهذا لا يعني أن هناك سبب يدعو لليأس من قدرات العرب في تحقيق التقدم والازدهار.

كان الملك عبد العزيز آخر (الوهابيين)[1]، وهذا الكتاب يعرض منجزاتهم وفقاً لتسلسلها الزمني والتاريخي. وها قد تبدل المناخ المادي والروحاني السائد في شبه الجزيرة العربية بشكل جذري، فلا يمكن لذلك التغيير إلا أن يكون تغييراً باقياً ومستمراً.

صُمم هذا الكتاب على أن يُنشر إبان حياة الملك عبد العزيز والذي يتم إهداؤه حالياً تخليداً لذكراه. إن «العربية السعودية» أضحت اليوم معروفة لدى كافة دول العالم، والتي في فترة ما اعترتها الشكوك بخصوص قدرة الملك عبد العزيز على حكم العرب في هذه المنطقة.

(١) يستخدم المؤلف اسم «الوهابية» مثل الكثير من المؤلفين الغربيين وغيرهم عند الحديث عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والحركة التصحيحية التي قام بها ودعى إلى مبادئها. ويختلف الكُتّابُ عند إطلاق اسم «الوهابية» بين مغالط ومكابر ومضل وجاهل بحقيقة دعوة الشيخ.
ومن خلال قراءة الكتاب يبدو لي أن المؤلف حين يطلق «الوهابية» فهو يعرف حقيقتها وأهدافها وقصد من ذلك الإشارة إلى الحركة الإصلاحية التي قام بها الشيخ وأتباعه ومؤيدوه وعلى رأسهم آل سعود. وحين يطلق لفظ «الوهابيون» فهو، يقصد أتباع الشيخ محمد ومن جاء بعدهم من الأجيال اللاحقة التي آمنت بالدعوة وتحمست لها. إلا أن المؤلف هنا – وعلى ما يبدو حين يستخدم هذا اللفظ، فهو يقصد فئة معينة من أتباع الشيخ والمؤمنين بدعوته من الأجيال اللاحقة بعده. وهم الفئة التي ترخى بمهمة التعصب لمبادئ الدعوة.
ولسنا هنا في مجال بيان حقيقة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ولا مجال بيان دعاوى المناوئين لدعوته وحكمته. ولذلك فقد آثرنا استبدال كلمة الوهابيين والوهابية بما بناسبها من معنى عند ورودها في ثنايا الكتاب دون التعليق على ذلك مرة أخرى.
أما من أراد أن يطلع على بعض ما كتب عن هذا الموضوع فيمكن أن ينظر في بعض المؤلفات الخاصة بهذا الباب ومن ذلك:
كتاب: تصحيح خطأ تاريخي حول الوهابية، من تأليف الدكتور محمد بن سعد الشويعر ونشر مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض ط ٢، ١٤١٣هـ.
وكتاب: كتابات الرحالة الأجانب كمرجع لدراسة الحركة الوهابية في القرن التاسع عشر، تأليف: لي ديفيد كوبر، ترجمة: الدكتور عب الله الوليعي، الرياض ١٤١٢هـ.
(المعلق)

احتوت صفحات هذا الكتاب على سرد المراحل الأولى للنضال والوقوف في وجه المصاعب والأعداد الضيقي الأفق والتفكير. وعليه جاء ضمن صفحات هذا الكتاب شرحاً عن مراحل التوسع الناجحة على نطاق دولي، وشرحاً لفترات التماسك، وتأخذ هذه الشروحات حيّزاً تاريخياً يمتد على مدى أربعين عاماً. يمكن القول، إنه على مدى تلك الحقبة من التاريخ، لم يرتكب الملك عبد العزيز أي خطأ، وما يؤكد على هذه الحقيقة شهادة السير / بيرسي كوكس. وإن عدم ارتكاب أي خطأ هو بحد ذاته إنجازاً مبهراً.

وعلى مدى بقية سنوات الحرب، قدمت أمريكا وبريطانيا مساعدات مالية سخية، ورغم ذلك فإن كل الأموال كانت تتضاءل أمام بعض المصروفات الهائلة في ظل تفاوت الأولويات عند بعض المسؤولين عن المصروفات. ثم بدأ النفط يتدفق بكميات قليلة لكنها مرضية، وجرف هذا التدفق على قلته حواجز كانت سائدة وأعراف قائمة. فهم الملك عبد العزيز أهمية المال، لكن ذلك لا يعني أنه كان يريد المال لإغناء ثروته الشخصية، إذ إنه لم يتخلى أبداً عن بساطة الأخلاق التي ترعرع عليها في شبابه. كان في أيام الفقر كريماً ومضيافاً، وكان إذا توفر العطاء يعطي بدون قيود، وكان يُحكم التشديد على مصادر ثروات البلاد ليرضي الطموح الذي لا ينتهي.

ويقول المؤلف : إنه بخصوص هذا الكتاب المطروح بين يدي القراء، فقد وجهت كل جهودي – كما فعل المؤرخ العربي ابن بشر – للبحث عن الحقيقة، فلم أكتب أي شيء لم أعتقد بأنه الحقيقة، كما أرجو ممن يجد خطأ في كتابي هذا أن يصفح عن زلتي، لندن: في ١ أيلول ١٩٥٤ H.S Tj. B. Philby لأن مَن يصفح عن زلة مسلم سيصفح الله عن زلالته ويغفر خطاياه.